تحليل النَّصِّ الشِّعريّ عند جلال الدِّين السِّيوطيّ

"قصيدة بانت سعاد نمودجًا"

Analysis of the literary text of Jalal al-Din al-Suyuti

(Bant Souad's poem as a model)

أنس عطية الفقي*

anasatia@hotmail.com

ملخص البحث:

هذا البحث دراسة في كتاب "كنه المراد في بيان بانت سعاد" وتهدف هذه الدراسة إلى تحديد منهج جلال الدين السيوطي في تحليل النص الأدبي، وتتبع الخطوات التي تعامل مع النص من خلالها، بالإضافة إلى رصد بعض الظواهر المؤثرة في جوانب هذا التحليل، مع بيان الملامح النقدية اللافتة التي وردت في هذا الكتاب.

والواقع أن أهمية مثل هذه الدراسات تكمن في التواصل مع الجهود التراثية في مجال النقد الأدبي، فهي –وإن كانت لها خصوصيتها التراثية– تسهم في تطور النقد الأدبي الحديث بصفة عامة، بل إنها قد تساعد أيضا على تأسيس مناهج نقدية عربية حديثة يكون لها دورها في استنباط ما في نصوص الأدب العربي من أبعاد دلالية، وخصائص أسلوبية.

* أستاذ الأدب العربي كلية اللُّغات والترجمة –جامعة مصر للعوم والتكنولوجيا.

* مدير مركز تحقيق التراث العربي جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

وهذا التواصل مع التراث النقدي القديم له بدوره أهمية أخرى؛ حيث إن الناقد القديم يكون أقرب عهدًا بالنص، وأكثر تلاقيا مع لغته ودلالتها، فإذا أضفنا إلى ذلك صدور هذا النقد عن عالم متبحّر في علوم عصره كالسيوطي استطعنا أن ندرك مدى أهمية قراءة هذا النقد والإفادة منه على جميع الأصعدة.

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى مدخل موجز وثلاثة محاور، أما المدخل فنعرض فيه تعريفًا موجزًا عن السيوطي وعلاقته بالأدب. ثم نبذة عامة عن كتاب "كنه المراد في بيان بانت سعاد" وأما المحاور الثلاثة فهي:

1- الخطوات التي اتبعها السيوطي في تحليل مع النص.
2- الظواهر المؤثرة في جوانب التحليل.
3- الملامح النقدية اللافتة عند السيوطي.

الكلمات المفتاحية: كنه المراد، بانت سعاد، السيوطي، تحليل النصوص التراثية، النقد الأدبي التراثي.

Abstract:

This research paper investigates the book “Kunah almurad fi bayan bant Souad” and it aims to define Jalal Al-Din Al-Suyuti’s approach in analyzing the literary text and following the steps that he dealt with the text through it, in addition to distinguishing some of the phenomena affecting the aspects of this analysis is shedding light on the noteworthy features in this book.

In fact, the importance of such studies lies in communicating with the heritage efforts in the field of

literary criticism, as they - although they have their heritage specificity - contribute to the development of modern literary criticism in general and establish Arabic modern literacy criticism which helps in electing the semantic dimensions and stylistic characteristics in the texts of Arabic literacy texts.

This connection with the ancient critical heritage has in turn another significance. Since the ancient critic is closer to the text and more convergent with its language and its significance, if we add to that the issuance of this criticism by a scholar who delved into the sciences of his time, such as Al-Suyuti, we would be able to realize the importance of reading this criticism and benefiting from it at all levels.

This research has been divided into a brief introduction and three axes. As for the entry, we present a brief definition of Al-Suyuti and its relationship to literature. Then a general overview of the book "But what is meant by Bayan Banat Souad" The three topics are:

1- The steps followed by Al-Suyuti analyzing the text.

2 – The effective Phenomenon in the aspects of the analysis.

3- The significant critical features of Al-Suyuti.

Keywords: **Kunah almurad, Bant Souad, Al-Suyuti, analysis of heritage texts, heritage literary criticism.**

مدخل الدراسة:

جلال الدين السيوطي من أشهر علماء المسلمين، فهو عالم موسوعي له نتاج كبير في العلوم الدِّينيَّة واللُّغويَّة والأدبيَّة والتاريخيَّة. ولد بالقاهرة سنة 849هـ وتوفي سنة 911هـ، أي أنه عاش في العصر المملوكي الثاني، عصر المماليك الشراكسة. وهذه المرحلة التي واكبت حياة السيوطي حفلت بكثير من العلماء الأعلام في مختلف فنون المعرفة، كما حفلت بكثير من الدراسات الموسوعية التي تمثل ثقافة العصر.

وكان السيوطي شديد الاعتزاز بنفسه وبعلمه، ولعل هذا ما دفع بعض معاصريه إلى اتهامه بالغلو والتفاخر. يقول السيوطي في كتابه حسن المحاضرة "ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه والنحو، والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء..."[1]، ونلاحظ في آخر مقولته السابقة أنه ذكر المعاني والبيان والبديع ضمن ما تبحر فيه من علوم، أي أنه يضيف لنفسه صفة الأديب الناقد.

ولم تكن علاقة السيوطي بالشعر العربي علاقة هامشية على نحو ما تكون عادة عند أكثر العلماء المتخصصين في علوم الدين أو علوم الدنيا، بل كانت أعظم من هذا وأعمق، فالرجل كان عالما أديبا، وكان ذا عقلية فذة، ومواهب متعددة، وله مع الشعر صحبة، وللشعر في نفسه هوى، يظهر ذلك ويتوارى على حسب ما يعرض له من موضوعات.

ومن المعروف أن الشعر العربي يعدُّ مصدرًا أساسيًّا من مصادر الدراسات العربية، فالشعر ديوان العرب، وما من عالم في تاريخ التراث العربي

إلا وله بالشعر وشيجة، إلا أن هذه الوشيجة قد تقوى أو تضعف بعد أن يأخذ هذا العالم مجاله في دراساته اللغوية، أو البلاغية أو الدينية أو غير ذلك. المهم أن طبيعة اللغة العربية تقتضي أن يظل كل دارس في فروعها أو فيما يتعلق بها من علوم ومعارف على اتصال بالشعر الذي هو ديوان العرب.

والشيخ جلال الدين كان يحب الشعر وينظمه، وأغلب شعره في نظم العلوم، وله بعض الأبيات التي نسبها إلى نفسه في أثناء شرحه لقصيدة بانت سعاد. وقد ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن له ديوان شعر[2]، وله القصيدة البديعية في مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–، التي نسجها ميمية على منوال بردة البوصيري، وضمنها فنون البديع على عادة معاصريه. كما أن له مختارات شعرية تدل على اهتمامه بهذا الجانب ككتابه: "نزهة الجلساء في أشعار النساء". وكُتُب السيوطي مفعمة بالعديد من الشواهد الشعرية التي تشهد بذوق رفيع، وحسي بلاغي متميز.

والمتصفح شرح السيوطي "كنه المراد في بيان بانت سعاد" يكاد يقطع بأنه ذو عقلية نقدية واعية، وحس أدبي متميز، لولا ما يشوب ذلك من طغيان الجانب المنطقي، الذي تفرضه شخصية السيوطي الفقيه المحدث القاضي، الذي يبحث عن البينة الواضحة، والحجج المادية، والمرجعية الشرعية.

كتاب "كنه المراد في بيان بانت سعاد":

حظيت قصيدة بانت سعاد بشروح كثيرة على مدى العصور الإسلامية، بدأت من القرن الثالث الهجري واستمرت حتى عصرنا هذا، رصد منها كارل بروكلمان خمسة وثلاثين شرحا[3]، وقد أحصى محقق كتاب كنه المراد أربعة

وستين شرحًا ذكر أنها أبرز شروح القصيدة، وأضاف أن هناك شروحًا لمجهولين، وشروحا أخرى باللغتين الفارسية والتركية.[4]

ومن الباحثين المحدثين من خص شروح "بانت سعاد" بدراسات مستقلة، تناولتها بالحصر والوصف والتصنيف، بما يكشف عن مكانة هذه القصيدة في التراث العربي.[5]

وقد تنوعت شروح هذه القصيدة، فمنها الشروح اللغوية كشرح الخطيب التبريزي. ومنها الشروح النحوية كشرح ابن هشام الأنصاري المتوفى سنة761هـ الذي حظي بشهرة كبيرة، وكان تأثيره واضحا في الشروح التي جاءت بعده. ومنها الشروح الأدبية كشرح السيوطي الذي نحن بصدده.

بدأ السيوطي مؤلفه "كنه المراد في بيان بانت سعاد" بمقدمة مقتضبة ذكر فيها سبب كتابته هذا الشرح، كما ذكر ما سيضيفه شرحه هذا إلى الشروح السابقة التي اطلع عليها، واستدعى ذلك منه أن يحدد منهجه في تحليل النص. حيث إنه لم يُسَمِّ عمله هذا "شرحا" بل سماه "بيان"، ولعل الكلمة أقرب إلى روح البلاغة والنقد، فهو لم يرد أن يكون شرحه هذا تكرارا للشروح اللغوية الكثيرة التي تناولت القصيدة المذكورة، ولذلك فهو يقول "فلما كان المدح أرفع مقاصد الشعراء وأعلاها، وأنفسها وأغلاها، ... وكانت قصيدة كعب بن زهير المعروفة ببانت سعاد هي أنفس المدائح عقدًا ... وكانت الشروح الموضوعة عليها – فيما وقفت عليه– قاصرة على[6] شرح غريبها وإعراب ألفاظها المؤدية إلى حل تركيبها دون التعرض لمعانيها التي هي قصد طلابها .. اقتضى ذلك إشارة بعض إخواني في الله تعالى ممن تؤثر طاعته، ولا تسع مخالفته، أن أقتضب عليها شرحا يجمع

إلى حل ألفاظها بيان معانيها، ويقرب ثمار مقاصدها المتراكبة لاقتطاف جانيها، فاستخرت الله تعالى وبادرت إلى ما أشار عليّ على الوجه الذي يقصد.

منهج السيوطي في التعامل مع النص:

أولًا: التمهيد للنص:

بعد المقدمة السابقة بدأ السيوطي شرحه بتمهيد رأى أنه ضروري قبل مقاربة النص. يقول السيوطي "لا بد للمتصدي لهذه القصيدة قبل الخوض في شرحها من الإحاطة بثلاثة مقاصد: المقصد الأول في ترجمة ناظمها رضي الله عنه، ... والمقصد الثاني في سبب نظمه هذه القصيدة، ... والمقصد الثالث في بيان ترتيب القصيدة وسياقاتها التي سيقت عليها ..."[7] فقد اشتمل تمهيده إذن على ثلاثة عناصر هي: ترجمة الشاعر، ومناسبة القصيدة، ونظرة عامة إلى النص.

ولا يخفى على أي باحث ما لهذه الأشياء التمهيدية من فائدة في تحليل النص الشعري وبيان أبعاده وجوانبه.

ففي العنصر الأول وهو بتعبير السيوطي "المقصد الأول" ترجم للشاعر، وبين أنه من فحول الشعراء المخضرمين، وجاء بشيء من شعره.

وفي العنصر الثاني أو "المقصد الثاني" عرض السيوطي قصة إسلام كعب بن زهير، وكيف أنه وفد على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– متخفيا، بعد أن كان قد أهدر دمه، وكيف عفا عنه الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وأعطاه بردته مكافأة له على القصيدة.

أما العنصر الثالث أو "المقصد الثالث" فكان كما يقول السيوطي "في بيان ترتيب القصيدة وسياقاتها التي سيقت عليها". وفي هذا المقصد تكلم السيوطي عن القصيدة الجاهلية، وكيف أن الشعراء كانوا يفتتحونها بالغزل. ومن هنا بدأ الحديث عن شعر الغزل بقوله: "اعلم أنه كانت عادة أكثر شعراء العرب أنهم إذا أتوا بقصيدة مدح افتتحوها بالتشبيب، وهو المعبر عنه بالغزل، وهو عند المحققين من أهل الأدب يشتمل على أربعة أنواع:

النوع الأول: ذكر ما في المحب من الصفات التي هي من أسباب المحبة الدالة على المحبة، كالشغف والنحول والذبول .... والنوع الثاني: ذكر ما في المحبوب من الصفات التي هي أسباب المحبة ... ويسمى هذا النوع من التشبيب نسيبًا أيضًا. النوع الثالث: ذكر ما يتعلق بالمحب والمحبوب جميعًا من هجر وصد ووصل وسلوى ... النوع الرابع: ذكر ما يتعلق بغيرهما بسببهما من الوشاة والرقباء"[8].

وبعد هذا التنظير الذي قدمه عن شعر الغزل وأنواعه يقرر السيوطي أن قصيدة بانت سعاد اشتملت على الأنواع الأربعة التي ذكرها من أحوال المحبين. ثم يستمر في بيان أوجه الترابط والوحدة بين أجزاء القصيدة بوجه عام، فيربط بين الغزل ووصف الناقة التي لا يوصل إلى المحبوب إلا بها، ثم الخلوص إلى طلب العفو من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومديحه، ثم مديح المهاجرين من الصحابة، ويعلق على عدم مديحه الأنصار، ويعزو ذلك إلى ذلك الأنصاري الذي قال: دعني –يا رسول الله– وعدو الله أضرب عنقه. فكان ذلك سببًا في أن يأخذ كعب موقفًا من الأنصار. وإن كان قد عاد بعد ذلك ومدحهم.

والواضح أن هذا التمهيد يدل على منهجية السيوطي في تناول النص الشعري؛ حيث يكشف عن الظروف المحيطة بالنص، ويربط بين أجزائه، فيحقق بذلك النظرة الكلية للعمل الأدبي التي تساعد على تلقي التفاصيل التحليلية بعد ذلك وتوجيهها لفهم النص وتذوقه.

ثانيًا: الخطوات التي اتبعها السيوطي في تحليل النص:

بعد ذلك يبدأ السيوطي في مقاربة النص الشعري، وهو عادة يأخذ بيتا بيتا، ولكنه أحيانا يتناول البيتين، وذلك عندما يتصل معناهما وتركيبهما، مثل قول الشاعر:

لقد أقومُ مَقامًا لَو يقومُ بهِ أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ الفيلُ

لَظَلَّ يَرْعَدُ إلا أنْ يَكونَ له من الرسولِ بإذنِ اللهِ تَنْويلُ

يقول في بداية شرحهما: "هذان البيتان مرتبط أحدهما بالآخر مع تواليهما، فالكلام عليهما جملة واحدة". وكرر هذا النظام في تحليله للبيتين الرابع والأربعين والخامس والأربعين من القصيدة.

وعند تحليل البيت، يأخذ السيوطي نفسه بما تعهد به في مقدمته، من حل ألفاظها، وبيان معانيها، وتقريب ثمار مقاصدها. فهو يحلل البيت على خطوات:

الخطوة الأولى: توضيح معاني المفردات والتراكيب في سياق البيت الواحد:

ويستدعي ذلك منه:

1- أن يضبط صيغة المفردة ضبطا لغويًّا دقيقا، يحتاط له بأن يصف الحرف ويصف حركته بالنص عليهما معا، فيقول مثلا في شرح البيت الثاني والعشرين: "قوله: عيرانة... والعيران، بالعين المهملة وإسكان الياء وبعد الألف نون ثم هاء التأنيث: المشبهة في صلابتها عير الوحش... والنحض، بفتح النون وإسكان الحاء المهملة وبالضاد المعجمة: اللحم".[9]

ولا يخفى ما لهذا الضبط الدقيق من أهمية في تحديد معنى البيت وصياغته وتذوق معناه وتحليله، وبالتالي مساعدة القارئ على الفهم، خاصة وأن لغة القصيدة بها كثير من المفردات الغريبة على مسامع الأجيال المتأخرة.

2- أن يأتي – أحيانًا – بمصدر الكلمة وبعض اشتقاقاتها للإيضاح كقوله في شرح: أرجو وآمل أن تدنو مودتها: "يقول رجوت الشيء أرجوه رجاء بالمد إذا غلب على ظنك حصوله"[10].

3- استدعاء المعاني الدقيقة للكلمات التي قد يتوهم القارئ أنها مترادفة. كقوله في شرح البيت السابق نفسه "**أرجو وآمُلُ أنْ تَدْنو مَودَّتُها**: وآمل بمد الهمزة وضم الميم معناه أرجو أيضًا .. إلا أن الرجاء لا يكون إلا في الممكن، والأمل يكون في الممكن والمستحيل، ولذلك حسن الجمع بينها لحصول مغايرة ما."[11] فهو هنا قد فرق بين الرجاء والأمل، وأعجب بالشاعر حين جمع بينهما.

وهذا المدخل اللُّغوي له أهمية كبيرة في تحليل النص الشعري، فهو يعد أساسا للدراسات النقدية الحديثة، وهذا التفريق الدقيق بين المعاني له وظيفته الجوهرية في وصول الرسالة الشعرية كما أرادها الشاعر أو على الأقل فتح الدلالات التي تثري النص الشعري.

4- تعليل بعض المعاني اللغوية من باب الإيضاح، مثال ذلك: تعليله تسمية النعش بالآلة الحدباء يقول: "سمي بذلك، قيل: لصعوبة مرتقاه، وقيل لارتفاعه، وقيل: أخذًا من قولهم: ناقة حدباء إذا بدت جوانبها، لأن النعش كذلك، والظاهر أنه سمي بذلك تشبيها بالرجل الأحدب، فإن العرب لم تكن تعرف هذه الأسرة المنجرة من الخشب، وإنما كانوا يأخذون عصيا يربعونها تربيعا مستطيلا، وينسجون وسطها بالحبال يحملون عليها موتاهم،والعرب في البوادي على ذلك إلى الآن، وهذه الآلة إذا وضع فيها الميت وثقل على الحبال برزت عن العصي فأشبهت الرجل الأحدب في بروز ظهره"[12].

5- عرض اللغات أو اللهجات المختلفة في نطق لفظة ما، مع بيان الفصيح والأفصح. يقول: "وإخال بكسر الهمزة على الأفصح، ويجوز فتحها وهي لغة شاذة.

6 – عرض بعض الروايات الأخرى لبعض مفردات النص وتناولها بالتحليل السابق، ففي شرح البيت الأول يقول عقب توضيح معنى "لم يُفدَ": ويُروى: "لم يُشفَ" بدل يفد، بمعنى أنه بعد تبل قلبه ومرضه لم يجعل له شفاء منه"[13].

7- تحديد المعنى السياقي للمفردة، مع التنبيه على المعنى الأصلي، وربطها مباشرة بمتعلقاتها في جملتها. مثال على ذلك قوله في شرح البيت السابع والثلاثين:

كلُّ ابنِ أنثى وإنْ طالتْ سلامتُهُ يومًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

قوله: كل ابن أنثى أراد به كل مولود يولد من ذكر وأنثى، وإن كان لفظ الابن لا يقع في اللغة إلا على الذكر. والمراد بالآلة الحدباء: النعش.

8- بيان عوائد الضمائر المتصلة بالكلمة أو المنفصلة عنها كقوله شارحا: "وما يُبَلِّغُها إلا عُذافَرَةٌ قوله: وما يبلغها إلا عذافرة أي وما يبلغ الأرض التي أمست بها سعاد"[14] والأمثلة على هذا كثيرة، فهي موجودة في شرح كل بيت من أبيات القصيدة تقريبًا. ولعل اهتمام السيوطي بذلك يعد من آثار اشتغاله بالقضاء، فالحرص على تحديد عائد الضمير من خصائص اللغة القضائية.

9- تحديد الأسلوب من حيث التكلم والخطاب والغيبة، وهذا من تداعيات عوائد الضمائر. وهنا يحرص السيوطي على بيان "الالتفات" إن وجد كما فعل في شرحه للبيت التاسع والثلاثين[15]:

مَهْلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الْـ قـرآنِ فيهـا مَـواعيظٌ وتَفْصـيلُ

بعد قوله:

أُنْبِئْــتُ أنَّ رســـولَ اللهِ أَوْعَــدَني والعفــوُ عنــدَ رســولِ اللهِ مــأمولُ

حيث التفت فيه من الغيبة إلى الخطاب.

10 – عرض احتمالات معاني التركيب، إما من باب فتح الدلالة، أو من باب التشكك في الاحتمال الأرجح، وهذا أمر طبيعي، ترجع أسبابه إلى الهوة الزمنية بين المبدع والناقد، كما قد ترجع أحيانا إلى طبيعة النص الأدبي الذي يحتمل أكثر من تأويل. والمثال على ذلك نجده في شرح قول الشاعر: "من كل نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى" يقول السيوطي: أي الناقة المذكورة من كل ناقة نضاخة الذفرى بالعرق إذا عرقت، ثم هو محتمل معنيين: إما أن يريد أنها ناقة من النياق المتصفة بهذه الصفة، وإما أن يريد أن أصل وجودها من كل ناقة هي كذلك. ويكون ذلك وصفًا لها لأنه وصفها بكرم الأصل"[16].

الخطوة الثانية: عرض معنى البيت كاملًا:

ويكون ذلك بربطه بما سبق ثم ذكر معنى البيت كاملا كقوله في شرح البيت الخامس:

تَنْفــي الريــاحُ القَـذَى عَنْــهُ وأَفْرَطَــهُ مِـنْ صَـوْبِ سـاريةٍ بِـيضٌ يَعاليـلُ

ومعنى البيت: أن الرياح عند هبوبها تطرد ما بذلك الأبطح الذي أخذ منه الماء المشجوج به الراح المشبه به ثغر سعاد، حتى لم يبق به ما يكدره، وجاءت سحابة أو سحب بالليل فأمطرته حتى امتلأ وفاض، فاجتمع فيه الصفاء والبرودة والكثرة"[17]. وهنا نلاحظ أنه في أثناء شرحه معنى البيت قد ذكر معنى بيتين سابقين معه للربط والتوضيح.

الخطوة الثالثة: محاولة بيان بعض المقاصد المتعلقة بمعنى البيت:

وعلى حد تعبير السيوطي: "تقريب ما بعد من ثمار مقاصدها المتراكبة لاقتطاف جانيها"، وهذا باب واسع فتحه للتحدث حول النص، أو من خلاله، أو بعيدًا عنه.

فمن خلال ذلك يمكن له أن يُشَرِّح النص تشريحًا آخر وأن يفترض احتمالات أخرى. أو أن يستطرد بعيدا عن النص بذكر معلومات أو حكم أو قضايا تداعت من خلال اللفظ أو المعنى. كما أنه يطرح تساؤلات متعددة، يكون فيها أحيانا تزيد واستطراد، وأحيانًا أخرى تكون فاتحة لمغاليق النص. وسنتناول أمثلة لهذه وتلك عند حديثنا عن ظاهرة الاستطراد، وكذلك عند حديثنا عن قضية فتح الدلالة في الصفحات التالية.

الظواهر المؤثرة في جوانب التحليل عند السيوطي:

أولًا: الصبغة الشرعية:

أول ما يطالعنا في شخصية السيوطي الناقد هو تلك الهالة الشرعية التي تحيط به، والتي سرعان ما يعود إليها حينما تجمح مشاعره مع الشاعر إلى الانطلاق في آفاق النص الشعري.

فمن البداية والسيوطي يصرح بأن هذا النص الشعري شبه مقدس، وقد نصب نفسه مدافعًا عن صاحبه، مبررًا له كل شيء، ومهديًا له الثناء والمدح. ومستنده في ذلك أن هذه القصيدة أولًا: هي في مدح رسول الله –صلى الله عليه

وسلم-. ثانيًا: أنها قيلت على مسامعه الشريفة وقابلها بالقبول، بل بإهداء صاحبها بردته المباركة.

ثالثًا: أن ناظمها -رضي الله عنه- صحابي جليل، والصحابي في نظر العلماء -والسيوطي واحد منهم - هو من عاصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولقيه وآمن به، والصحابة عند أهل الحديث -ومنهم السيوطي أيضا- كلهم عدول، لا يجوز لأحد أن يقدح في كلامهم، أو يجرح في شخصية واحد منهم. هذه الخلفيات الشرعية كانت واضحة في مقدمة السيوطي التي قال فيها: "كانت قصيدة كعب بن زهير المعروفة ببانت سعاد هي أنفس المدائح عقدًا، وأعلاها مقامًا، وأعذبها وردًّا، أنشدت بين يديه -صلى الله عليه وسلم- فنالت أعلى المفاخر، وقضت بالتقدم في الفضل على ما بعدها، ما ترك الأول للآخر". والذي يتصفح شرح السيوطي لا يكاد يرى كلمة "الشاعر" أو "قال الشاعر كذا" وإنما يرى أنه استبدل بها قوله: "الناظم" وأحيانًا يردفها بقوله: "رضي الله عنه". والواضح أن ذلك من قبيل التحفظ الشرعي من وصف صحابي جليل بصفة شاعر، تلك الصفة التي وردت في القرآن الكريم في معرض الذم على التعميم {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}[18] من هنا نشعر مع السيوطي أنه بإزاء نص مقدس لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، وهذه أولى السلبيات التي يمكن أن تحجب كثيرًا من كوامن الإبداع النقدي الذي يثري النص الأدبي.

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ حيث نلاحظ أنه لا يقدح في مفردات أو تركيب أو حتى في رواية من روايات القصيدة كما في شرحه البيت السادس:

أكْـرِمْ بِهـا خُلـةً لَـوْ أنّهـا صَـدَقَتْ مَوْعودَهـا أو لَـو انَّ النصْـحَ مقبـولُ

يقول في أثناء تحليله اللُّغوي: "ويروى: فيالها خلة، بدل: أكرم بها خلة، أي فيا قوم أعجبوا لها خلة ويروي أيضًا: "يا ويحها خلة"، وويح، كلمة تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيرثى له رحمة، كما في قوله –صلى الله عليه وسلم– "ويح عمار تقتله الفئة الباغية". ويروي: "يا ويلها خلة:. وويل، كلمة لمن يستحق الهلكة.

وبعد هذا العرض ينتقل إلى المعنى العام دون أن يوضح موقفه من هذه الروايات والأنسب منها، إلا إذا كان هناك تفضيل منقول عن غيره من الشراح المعتبرين عندئذ فقط يصرح به منقولًا.

ومن مظاهر الصبغة الشرعية أيضًا أننا نجد السيوطي يتحين الفرصة – أية فرصة – لبسط الحديث الشرعي، وتبوء مكانه الطبيعي على منبر الخطابة في أثناء شرحه القصيدة، فبمجرد أن انتقل الشاعر من الغزل إلى الحكمة في قوله: "فكل ما قدر الرحمن مفعول" انتضى السيوطي سيف الخطاب الشرعي، إذ وجد الفرصة سانحة أمامه للتحدث عن القضاء والقدر، فبسط القول فيهما، وفي وجوب الإيمان بهما، وموقف الإسلام من منكري القدر، مستشهدا بالكتاب والسنة. والشيء نفسه تكرر عندما شرح البيت الشهير:

نُبِّئْتُ أنّ رسولَ اللهِ أوْعدَني والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ

وكان موضوع الخطبة هنا عفو رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، والاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة والسيرة المطهرة.

ومن أمثلةِ ذلك دفاعُه عن كعب وانتصاره له في مدحه المهاجرين بلبس الدروع حينما قال:

شُـــمُّ العَــرانينِ أبطــالٌ لَبــوسُهُمُ مِنْ صُنْعِ داوودَ فـي الهَيْجا سَرابيلُ

حيث أثبت – وبشواهد من التراث العربي– أن الاحتراز والحزم بلبس الدروع خير من المجازفة التي امتدحها الأعشى في قيس بن معديكرب حينما قال:

وإذا تجـــيءُ كتيبـــةٌ ملمومـــةٌ شــهباءُ يخشــى الرائــدونَ نهالَهــا

كُنْــتَ المُكَــرَّمَ غيــرَ لابــسِ جُنَّــةٍ بالســيفِ تَضْــرِبُ معلمــا أبطالَهــا

ويسوق رواية كثير وعبد الملك بن مروان حينما أنكر عليه الأخير مدحه إياه بلبس الدروع الحصينة، فأجابه بأن ذلك من الحزم، ومن تمام الحزم الاحتراز. ولبس الدروع صفة الحازمين أما الأعشى فإنه لم يكن مصيبا إنما مدح صاحبه بالجنون.

ثم يؤيد السيوطي كلامه بقول الله تعالى {وَخُذُوا حِذْرَكُمْ}[19].

وهكذا نجد السيوطي دائمًا يدافع عن كعب وأفكاره وألفاظه ومعانيه ويبرر له كل ما يقوله أو يروى عنه، ويؤيده بشواهد من التراث العربي.

أثر الفقه:

مع بداية شرح بانت سعاد يبدو واضحًا أثر الفقه في شرح السيوطي. ففي شرح البيت الأول يقول: "بانت المرأة من زوجها إذا فارقته، وهو معروف في عرف الشرع بالطلاق غير الرجعي". وفي تساؤلاته عقب التحليل اللُّغوي للبيت يطرح السيوطي مسألة شعر الغزل كأنه يناقش قضية فقهية يقول: "كيف ساغ أن يتغزل بامرأة في قصيدة أنشدها بين يدي النبي –صلى الله عليه وسلم؟ فالجواب

أنه جرى على عادة العرب في أشعارهم. وسماع النبي --صلى الله عليه وسلم- - ذلك وإقراره عليه دليل الجواز. إذ يحتمل أنه قصد امرأة معينة كانت حليلته وبانت عنه فتغزل بها، وقد نص العلماء رضي الله تعالى عنهم على أنه يمتنع التغزل إذا كان بشخص معين، أو امرأة أجنبية، أما إذا كان بحليلة، أو غير معين، فلا مانع ". ثم يقول: " ولذلك نص العلماء رضي الله عنهم على أن الميت عشقا معدود من الشهداء كالمبطون والمطعون والغريق وغيرهم، محتجين بما رواه الدار قطني في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: "من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد" وإن كان الحديث فيه ضعف.

وهكذا يشعر القارئ مع السيوطي أنه بإزاء مسائل فقهية لا نص شعري. وقد يذهب السيوطي إلى أبعد من هذا، حينما نراه يتحفظ من تشبيه المرأة بالظبي في قول كعب:

وما سعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلَتْ إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطرْفِ مَكْحولُ

إذ يتبنى أسلوب الفقيه الذي يخاطب تلامذته فيقول: "واعلم أن التشبيه بالظباء إنما هو من استحسانها في جنس الوحش، لا أنها أحسن من الآدمي في نفس الأمر قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[20]، وقال عز وجل{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}[21]؛ ولذلك قال الفقهاء رحمهم الله تعالى: لو قال لزوجته: إن لم تكوني أحسن من الشمس والقمر فأنت طالق، لم تطلق، وإن كانت زنجية سوداء. فالسيوطي يحاول تبرير التشبيه بالظبي في إطار المفهوم

الديني، ويقحم الفقه والفقهاء لكي يلقي عن عاتقه مسئولية الفتيا في هذا الأمر، ويذكر في الوقت ذاته نكتة فقهية طريفة مما يعجب عامة الناس.

والواقع أن النصَّ الشعري لا يحتمل مثل هذه القوالب الصارمة التي من شأنها أن تجمد الدلالة، وتذهب بما يحمله من إيحاءات وأبعاد أطلقها الشاعر بحرية تامة، تعد أعظم ما يحمله الفن من قيم إنسانية.

وقد يكون السيوطي معذورًا في منهجه هذا بسبب مكانته الدينية في المجتمع، أو بسبب الإطار الثقافي الذي كان يعيش فيه، والذي يفرض عليه أن يكون بهذا الشكل أو قريبًا منه. والرجل لم يكن غافلًا عن رؤية هذه الظروف المحيطة، يظهر ذلك في بيتين من الشواهد التي ساقها لتعبِّر عن الصراع داخل النفس الإنسانية بين العقل وقيوده والعاطفة وحريتها يقول الشاعر:

العقـــــلُ عَقيلـــــةُ الرجـــــالِ والحُـــــبُّ مُحلِّـــــلُ العِقـــــالِ

العقـــــلُ يقـــــولُ لا تبـــــالغْ والحُـــــبُّ يقـــــولُ لا تُبـــــالِ[22]

كما ساق السيوطي لنا في أثناء شرحه رواية توضح سبب استظهاره بالآيات والأحاديث وأقوال العلماء يقول: "وقد حكى الحريري في درة الغواص عن حماد بن العباس أنه سأل علي بن عيسى في ديوان الوزارة عن دواء الخُمار فأعرض عن كلامه وقال: ما أنا وهذه المسألة، فخجل حماد منه ثم التفت إلى قاضي القضاة أبي عمر فسأله عن ذلك، فتنحنح القاضي لإصلاح صوته ثم قال: قال الله تعالى: **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}**[23] وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "**استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها**". والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية وقد قال:

وكـــأسٍ شـــربْتُ علـــى لـــذَّةٍ وأخـــرى تَـــداوَيْتُ مِنْهـــا بهـــا

ثم تلاه أبو نواس فقال:

دعْ عَنْـكَ لَـوْمي فـإنَّ اللـومَ إغـراءُ وداونـي بـالتي كانَـتْ هـي الـداءُ

فأسفر حينئذ وجه حماد وقال: ما ضرك يا بارد لو تجيب بما أجاب به القاضي؟ وقد استظهر في الجواب عن المسألة بقول الله أولا، ثم بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم– ثانيا، وبين الفتيا، وأدى المعنى، وتبرأ من العهدة. فكان خَجَلُ عليّ بن عيسى من حماد بهذا الكلام أكثر من خجل حماد منه لما ابتدأ بالمسألة. والله تعالى أعلم بالصواب"[24]. فهذه الرواية قد تفسر لنا كثيرا من أحوال العلماء وأهل الشرع عند تعرضهم لموضوعات تناولها الفقه بالتحريم أو الكراهة، أو دخلت في إطار الشبهات التي اختلف الفقهاء في القطع بأحكامها؛ مما يجعل هذا العالم أو ذاك متحفظًا أو مستظهرًا بظاهر الشرع، في الوقت الذي يكون بداخله شخص آخر، له رغباته الدفينة التي تبدو وتختفي وراء كلامه. ولذلك نجد السيوطي قد أسهب وأطال في رواياته حينما جاء ذكر الخمر، وكذلك حينما جاء ذكر الغزل حتى إنه ليتحين الفرصة للربط بين كلام الشاعر في الخمر ومسائل الفقه عند قول كعب:

شُجَّتْ بِذي شَبَمٍ مِنْ ماءِ مَحْنِيَةٍ صافٍ بأبْطَحَ أضْحى وهْوَ مشمولُ

فيرى أن اختيار الشاعر للفظة "شجت" جاء مقصودًا من وجهين: الأول: أن الشج أعدل حالات مزج الخمر، والثاني: أن بين الشج في الرأس والشج في الكأس مناسبتين: ظاهرة وخفية، فأما الظاهرة: فهي أن شج رأس الكأس يوجب خروج الحباب منه وظهوره على سطحه، كما أن شج رأس الإنسان يوجب خروج

الدم منها وظهوره على سطح الجلد ... وأما الخفي: فهو أن أعلى الشجاج في الرأس الموضحة، وهي أن توضح العظم، فالواجبُ فيها خمسٌ من الإبل، ثم إن كانت عمدا اقتص فيها من الجاني، فإن عفا فيها على الدية، وجب الخمس من الإبل عليه. وإن كانت خطأ أو شبه عمد تحملتها العاقلة عنه كما يتحمل دية النفس في الخطأ. والكأس في يد النديم يعقله بأصابعه الخمس، بمعنى أنه يمنعه من الحركة ونحوها والعقل في أصل اللغة المنع، وبه سميت العاقلة لمنعها الجاني عن الوقوع في مثل هذه الجناية. وإلى هذا المعنى يشير الشيخ صدر الدين بن الوكيل الشافعي:

ما الكأسُ عندي بأطرافِ الأناملِ بلْ بالخَمْسِ تُقْبَضُ لا يَحْلو لها الهَرَبُ

شَجَجْتُ بالماءِ منها الرأسَ مُوضِحَةً فَحِينَ أَعْقِلُها بالخَمْسِ لا عَجَبُ

والواضح أن كعب بن زهير لم تكن في رأسه مثل هذه الأشياء الخاصة بفن الإشارة والتلميح إلى قضية فقهية لم تطرأ أصلا على ذهن شاعر حديث العهد بالإسلام، لم يكن قد درس أو عرف مثل هذه التفاصيل الشرعية الدقيقة. ناهيك عن فن الإشارة والتلميح والبديع الذي أتقنه صدر الدين بن الوكيل المستشهد بشعره في الشرح السابق. فالسيوطي – بلا شك – كان يتعامل مع بيتي ابن الوكيل وليس مع بيت كعب حينما ربط هذا الربط بين مسائل الفقه ومزج الخمر. وإن كان ابن الوكيل وغيره من الشعراء يصنعون مثل هذا لتحقيق المفارقة بالجمع بين ماهو مقدس وما هو محظور. وما أكثر ذلك في نماذج الاقتباس من القرآن الكريم.

ومما يمثل هذا الشد والجذب بين الدين ومحظوراته أو بين التمسك والتحلل عند العلماء تلك الحكاية التي ساقها السيوطي عن أم البنين ابنة عمر بن عبد العزيز[25] التي سألت عزة محبوبة كثير عن قوله فيها:

قَضَى كُلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَريمَهُ وعَزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غَريمُها

فقالت: ما كانت هذه الديون؟ قالت: وعدته بقبلة ومطلته بها. فقالت: أنجزيها له وعليّ إثمها. ففعلت. وكانت أم البنين صالحة، فأعتقت أربعين عبدًا، وقالت عند الكعبة: اللهم إني أبرأ إليك مما قلت لعزة.

ومن المؤثرات الفقهية في تحليل السيوطي اعتداده بظاهر المعنى، أو المعنى الأول الذي يعطيه اللفظ أو التركيب، والذي قد لا يكون مقصودا عن الشاعر، بل قد يقصد به ما وراءه من مفارقة أو تداعيات.

أثر القرآن الكريم والتفسير:

لا تكاد تخلو صفحة من صفحات "كنه المراد" من الاستشهاد بشيء من القرآن الكريم؛ وذلك لتفسير لفظة، أو توضيح معنى، أو تحليل تركيب، فالنص القرآني كان النص المسيطر على ثقافة هذا العصر، فهو مقياس لكل بليغ، وما أكثر المؤلفات البلاغية التي شاعت في هذا العصر واتخذت من نماذج القرآن الكريم أمثلة لفنون البلاغة والبيان والبديع، كما في كتاب بديع القرآن لابن أبي الإصبع. والسيوطي لم يترك خطوة من خطوات تحليله إلا واستشهد فيها بالقرآن الكريم. ففي تحليله اللغوي يستعين بالنص القرآني ليبين به ضبط الكلمة ومعناها. يقول في شرحه لبيت كعب:

ولا تُمَسِّــكُ بالعَهْــدِ الــذي زَعَمَــتْ إلا كمــا تُمْسِــكُ المــاءَ الغرابيــلُ

"ولا تمسك بضم التاء المثناه فوق، وكسر السين المشددة يقال: مسك بالشيء، ومنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ}[26]. ثم يقول: وقوله: زعمت يجوز أن تكون تكلفت ... والزعم في أصل اللغة: قول يدعيه المدعي محتمل للحق والباطل،[27] بيد أنه غلب استعماله في الباطل، ولم يرد في القرآن إلا معناه، ومنه قوله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} والأمثلة على هذا كثيرة في شرح السيوطي. كما أنه لا يترك الاستشهاد عندما ينتقل إلى المعنى السياقي أو المعنى العام، أو حتى حينما يستطرد، فمحفوظه القرآني يصاحبه في كل خطوات الشرح. يقول مستطردا: "واعلم أن السعاية والوشاية والنميمة وإفساد ما بين الأحبة خصوصا بالزور والبهتان أمر مذموم شرعا، وقد ورد الكتاب والسنة بذمه والنهي عنه قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[28]وهكذا لا ينفك السيوطي مستشهدا بالقرآن في كل خطوة يخطوها في تحليل النص الأدبي.

وقد لاحظ محقق كتاب كنه المراد هذا الأمر فأشار إليه بقوله: "غير أن اهتمام السيوطي بالقرآن الكريم كما هو الحال عند أصحاب اللغة والمعاجم والحديث والفقه وغيرهم جعله يكثر من اللجوء إلى الآيات القرآنية بشكل كبير ليدعم الرأي، إذ بلغ عدد الآيات القرآنية التي استعان بها، أو بجزء منها في شرحه أكثر من مائة وعشر آيات قرآنية"[29]

أما أثر **التفسير فيظهر** واضحا من خلال كثرة الروايات التي يوردها لتفسير النص، وذكر أسماء بعض المفسرين، واعتماد هذه الروايات ففي شرح البيت:

تَنْفي الرياحُ القَذَى عنهُ وأفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ سارِيةٍ بيضٌ يَعاليلُ

يقول السيوطي: "قال الإمام فخر الدين والريح عبارة عن هواء يتحرك. قال: وكونه متحركا ليس لذاته، وإلا لدامت حركته بدوام ذاته، فلا بد بأن يكون بتحريك الفاعل المختار وهو الله سبحانه وتعالى..."[30].

ويغلب على السيوطي أحيانًا شخصية المفسر في خطابه كما في قوله: "وهو المراد بقوله: بيض يعاليل، على أقوى التفاسير المتقدمة". يقول ذلك بعد تكراره عبارة "وإذا فسرنا" . كما يغلب على السيوطي أيضًا تفسير النص بالمأثور، هذا يظهر من خلال تلك الشواهد المتلاحقة التي يفسر من خلالها.

أثر الحديث:

السيوطي عالم حديث، فهو الإمام الحافظ الذي درس معضلات علم مصطلح الحديث وروى وأملى، كل ذلك كان له أثر في تحليله النص الأدبي، وقد التفت لذلك محقق كنه المراد أيضا، فبين أن السيوطي قد أورد ما يقارب الخمسة والأربعين حديثا في أثناء شرحه، وأسرف في إيراد تلك الأحاديث بما لا يفيد كثيرًا من شرح لفظ أو بيان معنى[31]. والواقع أن الاستشهاد بنصوص الأحاديث في هذه المرحلة – المرحلة التي قيلت فيها القصيدة – قد يفيد في تحليلها وبيان مقاصدها، ولكن السيوطي قد استطرد في ذكر أحاديث لا تساعد جديا في تفسير وتحليل النص، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك؛ حيث خرج إلى

علم الإسناد وما يتعلق به من صحة وضعف. فمثلا يقول معقبًا على حديث إياكم وخضراء الدمن: "على أن الحديث مصرح بضعفه لانفراد الواقدي به وإن كان المعنى صحيحا".

سيطرة المنهج النقلي:

لعل هذا الكلام الذي سوف نعرضه الآن متصل تمامًا بما سبق عن الصبغة الشرعية التي يتسم بها تحليل السيوطي. فالشريعة وعلومها منذ البداية قد هيمن عليها المنهج النقلي. والمنهج النقلي عند علماء المسلمين منهج معتبر، يرجع له الفضل في حفظ نصوص تراثية قيمة، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن الفضل يرجع له في حفظ اللغة العربية والعلوم الشرعية جميعها؛ بحيث وصلتنا على درجة عالية من الصحة والصواب لم تتحقق لتراث أمة من الأمم بشهادة العلماء المنصفين في الشرق والغرب. ولكن سيطرة هذا المنهج على تحليل النص الأدبي قد لا يكون مفيدا لأنه يكبت الإبداع النقدي، ويحد من الابتكار الذي من شأنه أن يساعد في فهم وتذوق النص الأدبي، والوصول إلى أغوار النفس الإنسانية، التي تريد أن تبلغ رسالتها عبر النص.

والسيوطي كان مبالغًا في استخدامه المنهج النقلي. فواضح منذ البداية، أنه قرأ شروحا عديدة لبانت سعاد، وفي مقدمتها شرح ابن هشام، الذي كرر اسمه في مواضع كثيرة، وأفاد من ملاحظاته اللغوية، كما قرأ شرح الخطيب التبريزي، ونقل عنه، وذكر ذلك في أكثر من موضع، هذا بالإضافة إلى ابن الأثير الجزري، وابن عبد البر، وغيرهم من العلماء واللغويين، الذين استعان برواياتهم في شرح القصيدة.

وتظهر مبالغة السيوطي في النقل من خلال تفسيره الأبيات بالروايات المنقولة عن اللغويين خاصة، فهو يحاول أن ينأى بنفسه عن ذكر رأي خاص به في تفسير النص، وفي الوقت نفسه ينقل الآراء الانطباعية لغيره من الشراح كابن هشام. يقول في شرحه قول كعب:

"**إنَّ الرسولَ لَنورٌ يُستضاءُ بِهِ**" قال ابن هشام: وهو حسن "فهو ينقل رأيا انطباعيا لابن هشام قد يوافق رأيه، ولكنه لا يحاول أن يصرح بذلك؛ حرصا منه على سلامة النقل وتوثيق المنقول".

المسحة الصوفية:

تظهر في شرح السيوطي مسحة صوفية، وهذا أمر متوقع فالسيوطي له علاقة وطيدة بالتصوف والصوفية، حيث تولى مشيخة الخانقاه، وألف في التصوف وكتب عن شيوخه. والتصوف في هذا العصر كان سمة مميزة لغالب شيوخه العلماء؛ حيث اعترفت الدولة بالطرق الصوفية، وحاطتها بالعناية والرعاية وكرمت شيوخها مما زاد من هيبتهم أمام الناس.

وفي شرح قصيدة بانت سعاد نجد بعض اللفتات الصوفية مثل قوله في كعب بن زهير: "وقد حصل له الإمداد النبوي والإسعاد المحمدي " عبر بذلك ترجيحا لأن يكون كعب قد قال القصيدة ارتجالا "[32]. كما نجده يستشهد معجبا بشعر ابن الفارض يقول: "ولله در الشيخ شرف الدين بن الفارض"؛ حيث يقول:

وَعِشْ سالمًا فالحُبُّ راحتُهُ عَنا وأوَّلُهُ سُقْمٌ وآخرُهُ قَتْلُ

كما نجده يستشهد بأقول الجنيد قائلًا: "وقد قال الجنيد رضي الله عنه: العشق آلة رحمانية وإلهام شوقي أوجبها كرم الله تعالى على كل ذي روح". كما

ينقل بعض الإشارات الصوفية في أثناء حديثه عن مكانة "القلب" في جسم الإنسان، والحكمة من وجوده على اليسار. يقول: "قال بعض أهل الحقائق: وهذا هو السر في كون الطائف بجعل البيت عن يساره ويطوف؛ لأن القلب كالملك في الجسم، والبيت كالملك في الأرض، فإذا جعل البيت على يساره وطاف، كأنه قد جمع بين الملكين في جهة واحدة"[33].

ثانيًا: الآثار الموسوعية الأخرى:

أثر الدِّراسات اللغوية والنحوية:

يتضح من خلال شرح السيوطي تأثره بدراساته اللغوية والنحوية يظهر ذلك خاصة عند بداية شرح البيت حينما يبدأ ببيان معاني المفردات ثم التراكيب مع بيان دلالاتها المحتملة، ورد الضمائر إلى عوائدها، كما يظهر ذلك في تكراره ذكر اللغويين وآرائهم على نحو ما ذكرنا سابقا.

والملاحظ في شرح السيوطي أنه لم يطلق عنان الاستطراد اللغوي كابن هشام مثلا في شرحه، ولكنه أخذ من اللغة على قدر ما يفيد النص ويسهم في بيان مقاصده. يقول في شرحه البيت الثامن:

فما تَدُومُ على حالٍ تَكونُ بِها كَما تَلَوَّنُ في أثْوابِها الغُولُ

قوله: فما تدوم ... والحال: يذكر ويؤنث، يقال هذا حال صالح، وهذه حالة صالحة، وقد يقال: حال (صالحة)، والتأنيث لغة أهل الحجاز، وعليها جرى الناظم، ولذلك قال: تكون بها، ولم يقل: به. وقوله: كما تلون في أثوابها الغول. أي بل تتلون كما تتلون الغول في أثوابها. وأصل تلون: تتلون بتائين في أوله، فحذفت إحدى التاءين على عادة العرب في ذلك، كما حذفت في قوله

تعالى {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظ}[34]، والأثواب جمع ثوب، وهو معروف، والغول واحد الغيلان وهو نوع من شياطين. قيل سميت بذلك لأنها تغتال الشخص ..." إلى آخره. وهكذا يمضي السيوطي دون استطراد لغوي كما يصنع ابن هشام الذي يورد آراء اللغويين والنحويين ويناقشها مناقشة واسعة تخرج عن حد الاعتدال، فيشعر القارئ معها أنه في درس نحوي وصرفي، ويكاد ينسى أنه يقرأ شرح قصيدة بانت سعاد.

وواضح أن شرح ابن هشام خاصة كان تحت نظر السيوطي في أثناء كتابته هذا الشرح، بيد أن السيوطي تميز عنه بالاقتصاد في ذكر مسائل اللغة والنحو بما يسهم في بيان معاني القصيدة.

أثر الدراسات البلاغية:

أكثر ما يميز الدراسات البلاغية في عصر السيوطي كثرة التفريعات التي تعد في نظر بعض الباحثين ظاهرة سلبية، وغالب الظن أنها ظاهرة إيجابية، تدل على اهتمام وتخصص، كما أنها تساعد على إيجاد معايير نظرية نستطيع من خلالها نقد وتقويم النص الأدبي.

والدراسات النقدية الحديثة التي اعتمدت الأسلوبية سبيلا لها، وتناولت من خلالها الجوانب الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية والصورة الأدبية وما يرافق هذه الأشياء من ظواهر أسلوبية كالرمز والإشارة والتناص وغير ذلك، كل هذا قد نجد له فروعا مماثلة في الدراسات البلاغية العربية في عصر السيوطي، ولكننا لا ندعي أن دراسة النص التطبيقية في هذا العصر بلغت شأوًا كبيرًا، وذلك بسبب قلة الدراسات التطبيقية، وصرف الاهتمام إلى التنظير بصورة أكبر.

بالإضافة إلى النظرة الجزئية إلى كل فرع من فروع البديع وإغفال دوره مع غيره في صناعة النص الأدبي بصورة عامة.

ولا أظن أن بين أيدي الباحثين دراسات تطبيقية خاصة بتلك المرحلة غير هذه الشروح التي لا تتناول في طياتها معطيات بلاغية وبديعية فحسب بل تتسع لتشمل كل ثقافة العصر. وفي هذا الشرح الذي نحن بصدده نجد أصداء مختلفة لبلاغة هذا العصر وبيانه وبديعه.

والسيوطي كانت لديه ثقافة بلاغية واضحة تظهر خلال تحليله من ذلك مثلا قوله: "وخص التشبيه بالظبي جريًا على عادة العرب في التشبيه بها لمخالطتهم لها بواسطة سكناها الفلوات وبطون الأودية؛ إذ كل أحد إنما يقع له التشبيه بما في خزانة خياله، ألا ترى تشبيهات ابن المعتز في شعره، إنما هي باللآلئ واليواقيت وأصناف الجوهر، وتشبيهات العرب إنما هي بالشيح والقيصوم وأزهار البادية وما شاكل ذلك"[35]. فالسيوطي هنا يعيد كلامًا له أصداء في كتب البلاغة العربية عن التشبيه والخيال. ونراه في مواضع أخرى ينقل عن أبي هلال العسكري بعض ملاحظاته يقول: وقال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتاب الصناعتين: إن وصف المقلد بالغلظ من خطأ الوصف، وإنما توصف النجائب برقة المذبح"[36]. وقد ذكر السيوطي كثيرا من أنواع البديع في أثناء شرحه للقصيدة فعلى سبيل المثال ذكر اللف والنشر في قول كعب:

فـلا يَغُرَّنْـكَ مـا مَنَّـتْ ومـا وَعَـدَتْ إنَّ الأمـانيَّ والأحـلامَ تضـليلُ

ونجده أحيانًا يصرح ببعض التعريفات البلاغية يقول: "وهذا تسمية أهل المعاني والبيان، التجريد: وهو أن يجرد من نفسه شخصًا ويوجه الخطاب إليه كما في قول الأعشى مخاطبًا نفسه:

وَدِّعْ هُرَيـــرةَ إنَّ الركْـــبَ مُرْتَحِـــلُ وَهَـلْ تُطيـقُ وَداعًـا أيُّهـا الرجُـلُ

وذكر السيوطي نوعًا من البديع اسمه "الرجوع"، والرجوع عند البلاغيين من البديع المعنوي، ويعرفونه بأنه العود إلى الكلام السابق بالنقض. ذكره السيوطي عند شرحه لقول كعب:

أرجـــو وآمُـــلُ أنْ تـــدنو مَوَدَّتُـــها ومـــا إخـــالُ لَـــدينا منـــكِ تنويـــلُ

فيقول معقبًا على تراجع الشاعر في الشطر الثاني عن موقفه في الشطر الأول: "وهذا النوع يسميه أهل البديع الرجوع لأنه يرجع إلى كلامه السابق بالنقض كقول ابن الطثرية شعرًا:

أليـــسَ قلـــيلاً نظـــرةٌ إنْ نظرتُهـــا إليـــكِ ولكـــنْ لـــيسَ منـــكِ قليـــلُ

فإنه أولًا استقل النظرة ثم تذكر أن ذلك ذهول منه؛ حيث عد النظرة من محبوبه قليلا فقال" وليس منك قليل"[37]. ونلاحظ هنا وفي الشاهد السابق أيضا أن السيوطي لا يكتفي بتطبيق الفن البديعي على القصيدة التي يشرحها ويحللها، ولكنه يستدعي الشواهد البلاغية المصاحبة للفن البديعي في كتب البلاغة لتأكيد النظرية، وهذا يدل على سيطرة شواهد البلاغة العربية على أذواق الناس في هذا العصر.

كما ذكر في شرحه الكناية وحسن التخلص والتكرار والالتفات وغير ذلك. ويلاحظ على شرح السيوطي عدم استيفائه هذا الجانب البلاغي من حيث

التطبيق، فالنص الشعري يحتاج إلى مزيد من التحليل البلاغي الذي يبرز مكامن الجمال ويفتح باب التذوق المثمر.

والتحليل النقدي المثمر يتخذ اللغة أساسًا ينفذ منها إلى داخل النص، وهو منهج اتبعه السيوطي في ضوء معطيات عصره البلاغية والنقدية، بيد أنه لم يستوف هذا الجانب فمثلا في شرحه لبيت كعب:

لقدْ أقومُ مَقامًا لو يقومُ بهِ أرى وأسمعُ ما قدْ أسمعُ الفيلُ

نجد السيوطي قد أغفل ظاهرة واضحة في البيت الأول، كان يجب أن ينوه عنها، وهي ظاهرة التقديم والتأخير، فعلى الرغم أن البلاغة القديمة لم تغفل هذه الظاهرة إلا أن السيوطي لم يشر إليها في البيت، لا عند تحليله اللغوي، ولا عند تحليله المعنوي أو البياني.

كما أنه لم يشر إلى أسلوب القصر ووظيفته البلاغية في قول كعب:

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلَتْ إلا أغنُّ غَضيضُ الطرفِ مكحولُ

وذلك على الرغم من وضوحه في شطري البيت.

الاستشهاد بالشعر العربي:

من الظواهر الواضحة في شرح السيوطي كثرة استشهاده بالشعر فقد تجاوزت الأبيات التي استشهد بها المائة، مثلت كل عصور الشعر العربي تقريبا، بما فيها تلك الأبيات التي نسبها إلى نفسه. وأكثر هذه الشواهد مبثوث في كتب النحو واللغة والمعاجم، وكذلك في كتب البلاغة العربية، والسيوطي كان عالما

موسوعيا، بالإضافة إلى أنه مشهود له بقوة الحافظة فليس غريبا أن يرفده محفوظه بمثل تلك الشواهد في كل محفل ومقام.

وتأتي شواهد السيوطي غالبًا حال استطرده في موضوع الغزل وما يتعلق به من أحوال المحبين، وقد سبق وألمحنا إلى السبب في ذلك؛ وهو أن العلماء والفقهاء والقضاة أمثال السيوطي لم يجدوا متنفسًا شعوريًّا يتحررون فيه من قيود المجتمع وصرامة التقاليد سوى الشعر، لذلك فهم يتحينون الفرصة لبثِّ مشاعرهم الإنسانية وأحوالهم العاطفية عبر هذا السبيل الذي قد يعذر سالكه.

ويلاحظ في الشواهد التي ساقها السيوطي أنها من النماذج المقبولة لفظًا ومعنى، فكلماتها مألوفة ومعانيها واضحة مع ما فيها من سلاسة العبارة ورقة العاطفة ومنها قول بشار:

وما تبصرُ العينانِ في مَوْضِعِ الهَوَى ولا تسمعُ الأذْنانِ إلا مِنَ القلْبِ

وقول الطغرائي:

إني لأذكُرُكمْ وقد بلغَ الظَّما منّي فأشرَقُ بالزُّلالِ البارِدِ

وأقولُ ليتَ أحبتي عاينتُهُمْ قبلَ المماتِ ولوْ بيومٍ واحدِ

ومنها لشاعر لم يسمه:

ومِنْ عَجَبٍ أنّي أحنُّ إليهمُ وأسألُ عنهمْ مَنْ رآني وهُمْ مَعي

وتطلُبُهُمْ عَيني وهمْ في سوادِها ويشتاقُهُمْ قلبي وهمْ بينَ أضلعي[38]

ومنها قول القشيري:

إنَّ المُحِبَّ إذا تُوُفِّيَ صابرًا كانتْ منازلُهُ معَ الشُّهداءِ[39]

ومنها قول جرير:

إن العيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانا[40]

ونادرًا ما يخرج في شواهده عن الغزل إلى موضوع آخر كالحكمة مثلا فهو يورد قول الشاعر:

تلقَى الكريمَ فتستدلُّ ببِشْرِهِ وترى العبوسَ مع اللئيمِ دليلا[41]

وقول الشاعر:

كلُّ امرئٍ راجعٌ يومًا لشيمتِهِ إنَّ التَّخَلُّقَ يأبى دونَه الخُلُقُ[42]

وكما جاءت شواهد القرآن الكريم والحديث الشريف لتوضيح معنى، أو تأييد احتمال، أو بيان تأويل، جاءت أيضا شواهد الشعر في مثل هذه الحالات، غير أن شواهد الشعر كانت أقرب لروح الشرح الأدبي بسبب تقارب المعنى وتوحد المشرب.

أثر علم المنطق والفلسفة:

منذ بواكير النهضة العلمية في الدولة الإسلامية بدأ تأثر العلماء المسلمين بالفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي، وليس أدل على هذا من أن علماءنا قد أطلقوا على أرسطو اسم المعلم الأول. وعصر السيوطي –وإن تغير فيه الموقف من الفلسفة– بيد أنه يعد امتدادًا طبيعيًّا لعصور الدولة الإسلامية. وأثر المنطق واضح من بداية شرح السيوطي، فكثرة الاحتمالات التي يطرحها لتأويل المعنى الواحد، وهذا التشريح الذي ينتهجه مع الألفاظ والتراكيب، وهذا الربط الواضح بين الجزئيات والكليات في القصيدة دون إغفال أو غفوة، كل ذلك

يدل على عقلية متأثرة بالمنطق ومسائله. كما يظهر ذلك الأثر أيضا في التساؤلات والافتراضات التي يطرحها السيوطي ويجيب عنها في أواخر شرحه الأبيات.

وقد ورد ذكر الفلاسفة أكثر من مرة في شرح السيوطي فتارة يذكرهم قاصدًا بهم علماء الدنيا كقوله في سياق حديثه عن الرياح: "وزعم الفلاسفة أن سبب ذلك ارتفاع أجزاء دخانية لطيفة من الأرض قد سخنت تسخينا شديدًا". إلى آخر كلامه ثم يقول: "وهو مردود بأجوبة ليس هذا موضع ذكرها"[43] وتارة أخرى يذكر أسماء بعض الفلاسفة كأفلاطون في سياق حديثه عن الحكمة[44]. وهذا يدل على عدم وضوح الموقف من الفلسفة والفلاسفة في ذلك العصر،بسبب موجة التشدد السلفي التي عمت أوساط العلماء، وهذا ما أشار إليه أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام في حديثه عن العلوم العقلية في عصر المماليك[45].

أثر الثقافة العامة (ظاهرة الاستطراد):

تعد ظاهرة الاستطراد علامة بارزة في الكتابة الموسوعية و الشروح التي شاعت في هذا العصر والعصر السابق له، ويبدو أن الكاتب كان يقصد إليها قصدًا فالذي يتصفح كتاب الغيث المنسجم للصفدي مثلا يجد أن هذا الكتاب وإن كان قد قصد به شرح لامية العجم إلا أنه يحوي مذكرات، ومسامرات، وقصصًا، ونوادر، أكثر مما احتواه من شرح اللامية.

والسيوطي في شرحه هذا استطرد في مواضع غير قليلة، بيد أنه – قياسا على شروح العصر – لم يبالغ في هذا الجانب. واستطراد السيوطي في الغالب كان في الجانب الشرعي، وقد أوضحنا ما للصبغة الشرعية من تأثير

كبير على الرجل وتحليله النص الأدبي. وعلى الجانب الآخر نجد السيوطي يستطرد في الجوانب التي تمثل محاذير شرعية أو للشرع منها موقف معين، كشعر الخمريات والغزل. وقد سبق لنا الحديث عن بيتي صدر الدين بن الوكيل، وإعجاب الشاعر بهما لتوظيفهما مسائل الفقه في شعر الخمريات على سبيل المفارقة.

كما كان يستطرد أيضا لاستعراض ثقافته الموسوعية. فمع بداية شرحه البيت الأول يستطرد عندما يتكلم عن القلب شارحا كلمة "فقلبي" فبعد أن يُعرف القلب لغويًّا، يخرج إلى أهل الحقائق وإشاراتهم حول القلب، ثم إلى أهل التشريح علماء الطب في عصره، فيعرف القلب قائلا: "قال أهل التشريح وهو جسم صنوبري الشكل لحمي الجوهر، له جوف يحوي الدم والروح الحيواني، ومنه ينصب في الشرايين، وهي عروق دقاق فيسري منها إلى جميع البدن، وبينه وبين الدماغ شعبة دقيقة متصلة بغشائه منبثة في جرمه، يدرك بها القوي الحيوانية التي تنفعل بالانفعالات النفسية.." ثم يوضح بعد ذلك أن هذا القلب الجسماني ليس المقصود بالأغراض الدينية، ثم ينقل عن الإمام الغزالي تعريفا آخر للقلب غير الجسماني هذا فيقول: "لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ... وقد تحار عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقتها بالقلب الجسماني..."[46].

وهذا العرض الذي قدمه السيوطي قد لا يفيد كثيرا في تحليل النص الأدبي، ولكنه يعطي انطباعا واضحا عن الثقافة الموسوعية التي كان يمتلكها السيوطي وكيف أنه كان مطَّلعًا على آخر المستجدات العلمية في عصره. ومن

هنا تكمن قيمة هذه الشروح التي قد نعثر في طياتها على معلومات مفيدة تلقى الضوء على العصر وثقافته.

ويخرج السيوطي أحيانًا من سياق الشرح لينفس عما بداخله من رغبات توارت خلف مكانته الدينية فيتكلم عن الحب والعشق والفراق يقول: "ولا شك أن فراق الأحبة من أشد الآلام وأعظم الأحزان وناهيك ما أخبر الله تعالى به عن يعقوب عليه الصلاة والسلام في فراقه ليوسف بقوله تعالى **{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}**[47]. قيل: ما غفت عينا يعقوب عليه الصلاة والسلام من حين فراقه يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما. ولله در القائل:

إنـــي لأكْـــرَهُ أنْ أنـــامَ فأَلْتـــقي بك في الكَرَى خَوْفَ الفِراقِ الثاني

ثم يقول: "ومن المعاني المستحسنة ما قيل إن الشمس تحمر عند الطلوع لمعنى اللقاء، وتصفر عند الغروب لمعنى الفراق. ثم يسوق شواهد من الشعر لأبي العباس الضبي وأبي تمام، ويسوق أقوالًا أخرى عن الفراق. كقوله: "ومن كلام بعضهم "ما خلق الفراق إللا لتعذيب العشاق". ثم يحيل في النهاية إلى كتب الحب يقول: "وكتاب مصارع العشاق لأبي جعفر السراج، وطوق الحمامة لابن حزم مشحونان بذكر أخبارهم عن ذلك"[48].

ومن مظاهر الاستطراد عند السيوطي ظاهرة التكرار، فقد يكرر المعلومة بقصد أو بغير قصد، ظهر ذلك واضحا عند تكراره الحديث عن السعاية والنميمة وموقف الدين منهما مع بعض الروايات المتعلقة بهما[49]، وكان قد سبق وذكر

الكلام بنصه تقريبًا من قبل، بما فيه من روايات واستشهاد بالقرآن والحديث الشعر[50]، كرر ذلك حينما تكرر ذكر السعاية في النص الشعري عند قول كعب:

لا تأخُذَنِّي بأقوالِ الوشاةِ ولَمْ أُذْنِبْ وإنْ كَثُرَتْ فيّ الأقاويلُ

وكان قد تعرض لذلك عند قوله: **تسعى الوشاةُ جَنابَيْها**.

والسيوطي كان حاضر الذهن لا يأخذه الاستطراد تماما من قضيته التي يتكلم فيها فينسيه ما كان، ولكنه كان يربط في النهاية بين ما استطرد فيه وبين شرح النص. فمثلا حينما استطرد إلى أمر "الصوت" بقوله: "قال أبو هلال في كتابه الأوائل: وأمر الصوت عجب، منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنه ما يسر ويهيج حتى يُرقص..." ويظل يتكلم في ذلك، وينقل بعض الروايات المتعلقة بأمر الصوت، منها ما هو تراثي، ومنها ما قد سمعه ممن يعرف، فيذكر خبر تلك الشجرة التي تتمايل من حسن الصوت، وغير ذلك من الأخبار الغريبة[51]. ثم يقول عائدا إلى القصيدة: "ولما كان أمر الصوت من التأثير على ذلك حق له أن يتغزل بالغنة التي هي من ألذ الأصوات[52] يقصد بذلك كلمة أغن في قول الشاعر:

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلَتْ إلا أغنُّ غَضيضُ الطرفِ مكحولُ

والواقع أن الاستطراد عند السيوطي كان مجالًا واسًعا، تعرَّفنا من خلاله على ثقافة السيوطي العامة، واطلاعه على كتب الطب والفلسفة والجغرافيا وغير ذلك من العلوم الطبيعية التي تبين لنا أنه كان على معرفة بآخر مستجداتها. كما أنه كان سبيلا للتعرف على شخصية السيوطي من الداخل؛ فالرجل كتب الشعر،

وعرض لنا بعضه في مواضع مختلفة عندما استطرد وتحدث عن الوشاة والرقباء يقول: "ومما قلته في ذلك شعرًا:

احرصْ على طَرْدِ الرقيبِ وبُعْدِهِ أنْ تَغْتَنِمْ وَصْلَ الحبيبِ تُلاعبُهْ

كمْ ليلةٍ باتَ الحبيبُ بجانبي لكنني خوفَ الرقيبِ أُجانبُهْ

وواضح أنه شعر متواضع، وفيه تكلف، وبه ضرورات وزنية غير جائزة، كتسكين الميم في الفعل "تغتنم" لتناسب الوزن، وكذلك موضع كلمة "تلاعبه" وكأنها مجتلبة لتناسب القافية التي ستأتي بعدها.

وفي موضع آخر يعرض لنا شيئا من شعره، وذلك في تعقيبه على صفة "الولع" الذي وصف بها كعب خليلته سعاد: "الولع"، وهو الكذب، على ما تقدم، محتمل لأمور أيضا، منها كذبها في إخفاء محبته وإظهار كراهته وتغاضيها عن وصله، كما قلت مضمنا لبيت الرشيد شعرًا:

مَنْ مُنْصفي مِنْ فتاةٍ قَدْ عَلِقْتُ بِها أضْحَتْ يُمازِجُها وصلٌ وهجرانُ

تُبدي صُدودًا بِحُبٍّ تحتهُ شَغَفٌ فالنفسُ راضيةٌ والطرفُ غضبانُ

ومنها كذبها في دعوى العوائق عن الوصل وإقامة الحجج المانعة منه، كما قلت أيضًا شعرًا:

تُقيمُ مَعاذيرًا وَتَزْعُمُ وَصْلَهُ وتُطْمِعُ آمالي بها فأليئُ

وتحلفُ لو تسطيعُ جاءت بوصلِها وليس لمخضوبِ البنانِ يمينُ

فجميع ما ذكر سابقا هو من شعره يستشهد به على معنى معين من تلك المعاني الغزلية التي يأنس حينما يخرج إليها استطرادًا، أو ربطًا بمعاني القصيدة أحيانا.

كما أنه يدخل نفسه في موازنة مع شعراء سابقين، ففي شرح البيت التاسع، وبعد أن عرض أسباب نفور المحبوب، وشرع في وصف العلاج، يذكر أن هناك مذهبًا يقضي بأخذ المحبوب بالقهر إن لم يسمح بالوصل، ثم يستشهد على ذلك ببيتين للسلطان الأغلب بالله ابن الأحمر الأندلسي يقول فيهما:

أيا رَبَّةَ القُرطِ التي حسّنَتْ هَتْكي على كلِّ حالٍ أنتِ لا بدَّ لي منكِ

فإمّا بِذُلٍّ فَهْوَ أَلْيَقُ بالهوى وإمّا بعزٍّ فَهْوَ أَلْيَقُ بالمُلْكِ

يقول السيوطي معقبًا على ذلك: "على أن الصفدي لم يرتض هذا المذهب فقال رادًّا على ابن الأحمر:

تَمَسَّكْ بِذُلٍّ فَهْوَ أَلْيَقُ بالهوى لِتُنْظَمَ مَعْ أَهْلِ المحبةِ في سِلْكِ

متى لا قَ بالعشاقِ عزٌّ وسطوةٌ كأنكَ مِنْ ذُلِّ المحبةِ في شكِّ

ولا شك أن ابن الأحمر تكلم على قدر مقامه وعزيز مكانه في السطوة والقهر، والصلاح الصفدي تكلم على ما يليق بمقام العشق في نفس الأمر، فالعشق يذل الأسود، ويلين الصلد، إلا أنه إذا دار الأمر بين الذل والوصل، فالوصل بالعز أولى، كما قلت منتصرا لابن الأحمر ورادا على الصفدي:

إذا لم يكن وصلٌ إلى الحبِّ مسعفٌ وأمسيتُ تحت الضير في الرق[53] والضنكِ

ولم أستطعْ صبرًا على الذلِّ والهوى فبالعزِّ وصلُ الخودِ أولى من التركِ

وكما هو واضح من موازنة السيوطي فإنه ركَّز على المعنى العقلي للأبيات ولم يعط الصياغة أهمية تذكر في هذه الموازنة.

الملامح النقدية اللافتة عند السيوطي:

من الملاحظ في شرح السيوطي أنه يتميز ببعض المهارات النقدية اللافتة، منها مهارة الاستنباط، ولعل تأثره بالمنطق واشتغاله بالفقه والقضاء مع ما يملكه من عقلية متميزة كان سببا لإكسابه هذه المهارة. يظهر ذلك قبل بداية الشرح، عند توضيحه مناسبة القصيدة، فقد احتمل أن تكون القصيدة ارتجالا بسبب المعطيات المحيطة بمناسبتها، فهو يبين أن كعبا " لم يتعرض فيها لمدح الأنصار، قيل إنه وجد في نفسه من الذي قال منهم: دعني يا رسول الله وعدو الله أضرب عنقه على ما تقدم ذكره. فإن صح ذلك فيكون قوله ارتجالًا للوقت، ولا يبعد ذلك لأنه من فحول الشعراء"[54].

ومن هذه الملامح أيضًا "فتح الدلالة". فالسيوطي لا يكتفي بالمعنى الواحد بل يفتح أبوابا من المقاصد للشاعر عسى أن يكون قصدها، وفتح الدلالة مما يحمد في النقد الحديث، فمما يتميز به النص الأدبي تعدد القراءات، ولذلك نجد الناقد الحديث ينطلق من فرضية في تأويل النص وفهم رسالة الشاعر، ثم يحاول أن يثبتها من خلال تحليله النقدي. وأمثلة فتح الدلالة في شرح السيوطي كثيرة تغطي أكثر من نصف أبيات القصيدة من ذلك قوله في شرح البيت الأول: "ومعنى لم يُفْدَ: لم يقع له فداء من أسره الذي وقع فيه، إما بمعنى أنه لم يجد من يفديه ويخلصه من الأمر، وإما بمعنى أنه لم يختر الفداء، بل كان أمر المحبة إليه أحب"[55].

ويحرص السيوطي عند فتح الدلالة على إيراد المعنيين. الحقيقي والمجازي، وهذا شيء مهم في تناول مثل هذه النصوص القديمة التي قد يكون المعنى الحقيقي فيها معتبرًا لسبب أو لآخر. يقول في شرحه البيت الثالث والخمسين:

شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ داودَ في الهَيْجا سَرابيلُ

ومعنى البيت: أنهم في الناس ذو رفعة وعلو مقدار، وفي الحرب في غاية من الشجاعة رفيعة من السلاح. وقد وقع المدح لهم من ثلاثة أوجه: الوجه الأول: كونهم شم العرانين، وهو محتمل لمعنيين: أحدهما أن يكونوا شم العرانين التي هي الأنوف حقيقة، وهو من الأوصاف الحميدة في تكوين خلق الإنسان. وقد جاء في وصف النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان أشم العرنين . والثاني: أن يكون استعار ذلك لرفعة القدر والعلو..."[56] فتفسير السيوطي لـ"شم العرانين" استعرض فيه المعنى الحقيقي والمجازي ليفتح باب الدلالة على مصراعيه.

وقد أشرنا قبل ذلك عند الحديث عن أثر المنطق إلى تعدد الاحتمالات وكثرة التساؤلات التي يطرحها السيوطي ثم يجيب عنها، وهذا كله يعد من باب فتح الدلالة. كما أشرنا سابقا في السياق ذاته إلى خصيصة الربط بين الجزيئات والكليات في القصيدة فما يجعل بنص وحدة مترابطة لدى متذوقة من خلال هذا الشرح.

ومما يحسب للسيوطي في شرحه هذا أنه يعرض آراء الشراح السابقين، وبخاصة في الأمر المختلف فيه، كما صنع في معنى كلمة "عُرْضتها"؛ حيث

عرض ما قاله التبريزي وابن الأثير في شرحيهما، ثم تعليق ابن هشام ورفْضه ما تأولاه.[57]

وعلى الرغم من حرص السيوطي غالبًا على فتح الدلالات اللغوية بذكر المعاني الحقيقية والمجازية إلا أنه قد يؤخذ عليه أحيانا نقله معنى معين عن أحد الشراح كابن هشام وتقييد دلالة اللفظ به، في حين يسمح السياق بدلالات أخرى للفظ نفسه. يتضح ذلك في تقييده دلالة كلمة "تبديل" في قول الشاعر:

لكنَّهـا خُلَّـةٌ قَـدْ سـيطَ مِـنْ دَمِهـا فَجْـعٌ وَوَلْـعٌ وإخـلافٌ وتَبْـديلُ

حيث قيد دلالتها بـ"تبديل خليل بآخر"[58]، ذكر ذلك وأكده أكثر من مرة، وهو تفسير ابن هشام، في حين أن الكلمة قد تعني تبديل حالة بأخرى، أو وضع بآخر.

ومما يحسب له أيضًا التفاته إلى أمور قد تناولتها المناهج النقدية الحديثة بالدرس والتحليل، فقد كانت تساؤلاته التي فجرها تشي بروح باحث يريد أن يعرف ما وراء النص من أسرار، فعلى سبيل المثال نجده يتساءل حول سبب تشبيه الناقة بالثور الوحشي وحول تخصيص اللون الأبيض في قول الشاعر:

تَرْمـي الغُيـوبَ بِعَيْنَـيْ مُفْـرِدٍ لَهِـقٍ إذا تَوَقَّـــدَتِ الحِـــزَّازُ والمِيـــل[59]

ثُمَّ يُحاول إيجاد أجوبة مناسبة تؤيد الشاعر وترفع من شأن القصيدة مع أنها قد تكون غير مقنعة تمامًا. يقول السيوطي في خلال شرحه للبيت السابق "فإن قيل: لم خُصّ الثور الوحشي بالتشبيه به في حدة البصر دون غيره من الحيوانات؟ ولم خصه بذلك في حالة تفرده دون غيره؟ الجواب: أن الثور الوحشي من أحدِّ الوحوش نظرًا... فإن قيل: لما خصه بالبياض ولا مدخل للون في تشبيه

الناقة بالثور في حدة البصر؟ فالجواب في ذلك معنى آخر غير تحديق النظر وجِدّته، وهو الحسن..." فمثل هذا التساؤلات هي التي انطلقت منها المناهج الأسطورية في تحليل النص الأدبي وبخاصة في العصور القديمة. وهناك دراسات حديثة موسعة يمكن أن نجد فيها ردودًا على هذه التساؤلات المهمة التي طرحها السيوطي[60].

خاتمة البحث:

من خلال الدراسة السابقة يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1- أن الشروح التراثية لعيون الشعر العربي هي في الحقيقة دراسات نقدية، تمثل قراءة متفاعلة مع النص من قبل الشارح، يظهر من خلاله فكره وثقافته ومهارته النقدية.

2- أن كتاب "كنه المراد في بيان بانت سعاد" يعد من أهم الكتب التراثية في النقد الأدبي التطبيقي، نظرًا لما يحويه من ملاحظات لغوية وبيانية وملامح نقدية تعبر عن طريقة تناول النص الأدبي في عصر السيوطي.

3- أن جلال الدين السيوطي ذو عقلية نقدية واعية، وحس أدبي متميز، لولا ما يشوب ذلك من طغيان الجانب المنطقي، الذي تفرضه شخصية السيوطي الفقيه المحدث القاضي، الذي يبحث عن البينة الواضحة، والحجج المادية، والمرجعية الشرعية.

4- أن الخطوات التي اتبعها السيوطي في تحليل " بانت سعاد" خطوات منهجية، تبدأ من النص وتتعامل مع المستويات الأسلوبية المعروفة من صوتيات ومفردات وتراكيب وصورة فنية.

5- أن هناك مجموعة من الظواهر كان لها تأثير كبير في تحليل النص عند السيوطي: كالصبغة الشرعية، واللغوية، والمؤثرات الموسوعية الأخرى التي نتجت عنها ظاهرة الاستطراد.

6- أن للسيوطي بعض الملامح النقدية اللافتة التي تُعدُّ من منطلقات الدراسات النقدية الحديثة، كمهارة الاستنباط، وفتح الدلالة، ومحاولة التوغل فيما وراء النص.

هوامش

1 – السيوطي – حسن المحاضرة – المطبعة الشرفية – 2 / 19.

2 – د. مصطفى الشكعة_جلال الدين السيوطي_ الحلبي_ القاهرة_1981م_ ص14.

3 – انظر: كارل بروكلمان – تاريخ الأدب العربي– دار المعارف – القاهرة– الطبعة الخامسة –1983–ج 1 – ص 158

4 –انظر: السيوطي –كنه المراد في بيان بانت سعاد _تحقيق د. عبد الله محمد عيسى الغزالي ص 8– 12 .

5 –من ذلك علىسبيل المثال كتاب:قصيدة بانت سعاد وأثرها في التراث العربي. للدكتور السيد إبراهيم محمد.

6 – لعلها مقصورة

3– السيوطي –كنه المراد – ص 33– 34

7 – السابق – ص 35 – 38 .

8 – السابق ص 38

9 –كنه المراد ص 114،115

10 – السابق ص 96

11 –السابق ص 96

12 –السابق ص 133

13 – السابق ص 42

14 – انظر كنه المراد ص 101 .

15 – السابق ص 139

16 –السابق ص 104

17 – السابق ص 67

18 –الشعراء:224

1919 –النساء: من الآية102

20 –التين:4

21 –غافر: من الآية64

22 – البيتان للشاعر علي وفا السكندري – انظر ديوانه تحقيق دكتور أنس عطية الفقي – دار الغد الجديد – المنصورة – ط1 2002 ص 298 .

23 –الحشر: من الآية7

24 –كنه المراد ص 60

25 – يقول محقق النص : كذا في النسختين ب ، ك . وهي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وقيل ابنة عبد الملك بن مروان . وأحال إلي الزركلي في أعلام النساء . انظر كنه المراد هامش ص 77

26 –الأعراف: من الآية170.

27 –التغابن: من الآية7

3– الحجرات : الآية 6

4– كنه المراد : ص 22

30 – السابق ص 67

31 – كنه المراد ص 23

32 – كنه المراد ص 46

33 – السابق ص 40

34– الملك: من الآية8

35 – كنه المراد ص 50

36 – السابق ص 107

37 – كنه المراد ص 98

38 – كنه المراد ص 100

39 – السابق ص 49

40 – السابق ص 53

41 – السابق ص 57

42 – السابق ص 101

43 – السابق ص 67 ، 68

44 – السابق ص 92

45 –د. محمد زغلول سلام– الأدب في العصر المملوكي –منشأة المعارف– الإسكندرية– ط 3 – ج 1 – ص215

46 –انظر كنه المراد ص 40 ، 41

47 –يوسف الآية 84

48 – كنه المراد ص 45

49 – السابق ص 141

50 – السابق ص 129 ، 130

51 – السابق ص 52

52 – السابق ص 52

53 –في كنه المراد: العتق ، ويبدو أنه خطأ مطبعي.

54 –كنه المراد ص 37

55 – السابق ص 45

56 – السابق ص 160

57 – انظر السابق ص 104 ،105

58 –انظر السابق ص 79

59 – السابق ص 106

60 – انظر :كتاب الدكتور على البطل– الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري.–دار حراء– المنيا– مصر 1981، وكتاب: د. إبراهيم محمد علي –اللون في الشعر العربي قبل الإسلام_ جروس برس– طرابلس –لبنان– 2001م

مراجع البحث

- إبراهيم محمد علي

اللون في الشعر العربي قبل الإسلام – جروس برس – طرابلس – لبنان – 2001م.

- د.بدوي طبانة

– معجم البلاغة العربية – دار المنارة – جدة – ط 4 – 1997 م

- التبريزي

– شرح بانت سعاد – تحقيق عبد الرحيم الجمل – مكتبة الآداب – 1990م

- ابن رشيق

– العمدة – دار الجيل – بيروت – 1985 م

- السيوطي

– كنه المراد في بيان بانت سعاد – تحقيق د. عبد الله محمد عيسى الغزالي

– نزهة الجلساء في أشعار النساء – تحقيق صلاح الدين المنجد – دار المكشوف – بيروت – 1958م.

– حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة – المطبعة الشرفية.

- عبد الحفيظ فرغلي

– الحافظ جلال الدين السيوطي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1990م

- د. على البطل

– الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – دار حراء – المنيا – مصر – 1981م.

- على وفا السكندري

– ديوانه – تحقيق د. أنس عطية الفقي – دار الغد الجديد – المنصورة – ط1 2002م

- كارل بروكلمان

– تاريخ الأدب العربي – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة – 1983م – ج1

- د. محمد زغلول سلام – الأدب في العصر المملوكي – منشأة المعارف – الإسكندرية – ط3 – ج 1
- د. مصطفى الشكعة

– جلال الدين السيوطي – الحلبي – القاهرة – 1981م

- ابن هشام الأنصاري

– شرح بانت سعاد – البابي الحلبي – ط 3 – 1957م